الثابت والمتغير في شروط النهضة الحضارية ومعطياتها

د. كريم عجيل حسين

جامعة الأنبار / كلية الآداب / قسم التاريخ

مقدمة:الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن سار على هديه إلى يوم الدين .وبعد

فإن موضوع هذا البحث معني ببيان الأحوال التي كان عليها العرب قبيل ظهور الإسلام وبيان التغييرات الجوهرية التي حصلت في حياتهم بعد ظهوره فكانت أسباباً في نهضتهم وتفوقوهم .

معني هذا البحث أيضاً ببيان واقع العرب والمسلمين اليوم والثابت والمتغير فيه.الثابت الذي ينبغي أن يعتمد والمتغير الذي ينبغي تجاوزه كله أو بعضه،استنادا الى الثابت،و بأساليب ووسائل جديدة، منسجمة مع معطيات الحاضر وتطوراته،بهدف إحداث نهضة جديدة للعرب والمسلمين، تثري حياتهم بكل أبعادها الروحية والمادية من جديد، وتشع بذاتها على المجتمعات الإنسانية لتساهم بإثرائها.

إن الأجيال المعاصرة من المسلمين:العرب وسواهم من أبناء الأمم الأخرى ومن غيرهم يقدمون أسئلة بسيطة،لكنها ،بكل تأكيد،كبيرة، تتصل بواقع العرب والمسلمين اليوم.من هذه الأسئلة: لماذا نحن اليوم في عالم الماديات متخلفون وغيرنا متقدم ؟ لماذا تم تقسيمنا؟ ولماذا نتجه أو يراد لنا أن نتجه الى مزيد من التقسيم ؟ بينما سوانا توحد ويتجه إلى التوحد.ولذلك فإن هذا البحث سيحاول أيضاً الإجابة على هذه الأسئلة من منظور حضاري تاريخي.

كانت أحوال العرب قبيل ظهور الإسلام،أفضل من أحوال غيرهم من الأمم في ميادين ،ومتخلفة عنهم في ميادين أخرى.أحوالهم السياسية متردية ؛لم تكن لهم دولة واحدة ولم تكن لهم دولة قوية.كانت بلادهم خاضعة لسيطرة ونفوذ الدول الأخرى.كانت بلاد الشام ومصر وأجزاء واسعة من المغرب العربي خاضعة لدولة الروم.العراق كان خاضعا لدولة الفرس الساسانيين،واليمن خاضعاً لهم ومن سنة ٥٧٥م ومن قبل كان خاضعاً للأحباش.

في الإعتقاد كان بينهم عدد من الناس على دين إبراهيم الخليل صلاة الله تعالى وسلامه عليه،يقولون بتوحيد الله تعالى، ويقولون نحن نتبع دينه.عليهم امثلة في الحجاز .منهم ورقة وقس وأبو قيس صرمة.سائر أهل المدن في الحجاز ابتعدوا وعلى أية مسافة عن تنزيه الخالق العظيم وتوحيده ،فأشركوا بالله تعالى ما لم ينزل به سلطانا.عظموا الأصنام والأوثان وقربوا إليها القرابين والهدايا لتقربهم بزعمهم إلى الله تعالى الذي كانوا به مؤمنين " ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله" " قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفا " .عاد هؤلاء العرب إلى ما كان عليه قوم إبراهيم في العراق.وما كان عليه غيرهم من ألوان الشراك بالله .نكس الناس عن إفراد الله تعالى بالربوبية والعبودية .

كان العرب بحاجة من جديد إلى من يحمل راية التوحيد التي رفع رايتها في العراق ابنه وفتاه الشجاع إبراهيم الذي دافع عن عقيدة توحيد الله تعالى بشجاعة وحاج قومه لتوضيحها بالعقل والمنطق فكذبه الطغاة سدنة معابد الشرك والإستغلال والقهر للإنسان فقالوا حرقوه وانصروا آلهتكُم. قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم. وأرادوا به كيدا فجعلهم الله تعالى من الأخسرين.فوجه إبراهيم وجهه لله الذي فطر السماوات والأرض حنيفا مسلما وما كان من المشركين.ترك إبراهيم العراق، بعد أن

نجاه الله من الحرق بأمر من ملك العراق ، لتبليغ دعوة الله للناس في الأرض المباركة وما حولها؛ بلاد الشام ومصر والجزيرة،وهي كلها من بلاد العرب.وبأمر من الله تعالى بعث إبراهيم شعائر التوحيد في قلب جزيرة العرب في مكة المكرمة.أسكن من ذريته في وادي غير ذي زرع عند البيت المحرم في مكة ليقيموا الصلاة،ودعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وأن يرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون.فأستجاب ربه دعوته.فأصبحت مكة المكرمة مركز عبادة الله تعالى الأول ومركز إقامة شعائرها الأولى على سطح هذا الكوكب .يحج إليها المؤمنون من كل فج عميق.فأي تشريف وأي اختيار وأية رفعة لهذه الأمة الكريمة المباركة.أن تكون إحدى مدنها ،مركز الكرة الأرضية ومركز الكون الفلكي،وفيها أول بيت وضع لعبادة الله تعال،يأتي إليها الناس المؤمنون بالله من كل معمور.إن هذا الأختيار فيه دلالات واضحة ومنها أن هذه الأمة المؤمنة لها شرف القيادة بالإيمان وشرف الرفعة بالإسلام لله تعالى.

كان بين العرب،حين ولادة النبي الكريم قلة قليلة على التوحيد،ومنهم من كان على النصرانية ومنهم من كان على اليهودية، وأصحابها كلهم من أتباع انبياء الله ومن ذرية الأنبياء ومن ذرية إبراهيم على الأنبياء جميعاً وعلى أتباعهم الموحدين لله تعالى الصلاة والسلام.غير أنهم غيروا كما غير أهل مكة أهل الحرم.

في عام مولد النبي الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تعرضت مكة المكرمة للغزو الحبشي.كان الغزو يستهدف تدمير الكعبة المشرفة والبيت المحرم.وتحويل حج الناس إلى مركز عبادي آخر في اليمن.بهدف تحقيق منافع مادية وفيرة ونقل الزعامة الدينية من مكة المكرمة إلى القليس،التي بناها ابرهة في اليمن.الذي كان خاضعاً لقوة الإحتلال الحبشي.في هذا الغزو دليل قاطع على أن الوضع السياسي للعرب قد بلغ أدنى درجات ضعفه.فلم تكتف القوى الخارجية بإستيلاء على أطرافه في العراق والشام واليمن ومصر وسواحل شمال أفرقيا، إنما استهدفت قلبه ،أستهدفت أشرف رمز وأعلى عنوان على مكانة العرب ودورهم الديني والإنساني والحضاري في تاريخ البشرية،وهي مكة المكرمة ،التي فيها أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض.لم يتمكن أهل مكة من الوقوف بوجه حملة أبرهة،وتركوا البيت لله تعالى ليدافع عنه،فهو بيته.لم يكونوا يملكون من القوة المادية ما يعينهم على إفشال الحملة وإفشال مقاصدها،وإن انبرى نفر من أهلها للدفاع عنها، فإن الرأى استقر عندهم أن يخلوا بينها وبين إبره وجيشه الكبير.تلمس هذا في الحوار الذي جرى بين سيد مكة عبد المطلب وقائد الحملة أبرهة الحبشي .الذي استغرب أن يأتيه سيد مكة سائلا عن إبله بدل أن يفاوض عن البيت وحميته ودفع الخطر عنه.فقال له عبد المطلب: أما الإبل فهي ابلي .وأما البيت فله رب يحميه .وقد صدق عبد المطلب .وكان كبير الإيمان عندما قالها:أن للبيت رب يحميه.فقد حمى الله تعالى بيته ." ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ".

في ذلك العام الذي غزى فيه ابرهة مكة المكرمة ومع دلالات أحداث الغزو المعبرة عن هوان العرب سياسياً ،مع رسوخ الإيمان في القلوب(للبيت رب يحميه)، أمام القوى الدولية المعاصرة لهم.كان تدخل رب البيت، رب العالمين، بأحداث التاريخ لصالح العرب ،أهل دينه ،أهل التوحيد، أهل بيته، أهل الحرم، أهل أنبيائه،وأهل آلهم وأهل أصحابهم .أنهم وإن بدلوا وحرفوا بأي قدر في هذا وذاك.غير أن الثورة والتغيير على الفاسد والمتخلف في حياتهم و الإنقلاب على الضلال والشرك لا تكون إلا من عندهم ومن بينهم.لا تكون إلا من بين ذرية الأنبياء في هذه الأمة الكريمة، لا يأتي من خارجها البتة، بل يأتي دائماً من بين أبنائها.ولهذا ندرك حكمة ظهور الأنبياء والمرسلين بالتتابع من بين أبناء هذه الأمة،لتصحيح الأخطاء والإرتقاء بالأمة إلى المستوى التشريفي الذي اختاره الله تعالى لها:كنتم خير امة أخرجت للناس.

كانت ولادة النبي الكريم محمد صلواة ربي وسلامه عليه في ذلك العام،الذي أشر على ضعف العرب سياسيا ،وأكد على حاجتهم والبشرية إلى الثورة على الواقع. لما لحق العقيدة الصحيحة من تحريف، ولما شاع في الحياة بكل أبعادها من فساد.وهو سلام الله عليه من ولد إسماعيل و إبراهيم.اللذان قادا الثورة على الشرك والظلم الإجتماعي من قبل. الثورة تكون على يد أحد ابناء الأنبياء ،وليس على يد غيره من أبناء الأمم الأخرى.ليس على يد أبرهة ،أو على يد هرقل،كانت ولادته ،صلى الله عليه وسلم،في عام الفيل، تقول إن التغيير قادم.بعد أن وصل الضعف والتخلف مداه في حياة العرب.وبعد أن وصل ظلم وعدوان القوى السياسية العالمية المعاصرة مداه على أمة الأنبياء والمرسلين وأمة الكتب التي حملت الهداية للعالمين.ولذك فلا غرابة أن أضاء النور الذي رافق لحضات ولادته المعمور من الأرض.ففيه رمز إلى حاجته لهذا النور،نور الرسالة التي ارتضاها للناس خالقهم العظيم، ونال العرب المؤمنون شرف حملها.

كان بدء الوحي، بدء لمرحلة جديدة في حياة العرب .وحياة البشرية.مرحلة تم ومن أول لحظة تغيير فيها، ربطها بالثابت، الذي لا يمكن لها أن تحيا حياة كريمة عزيزة بغيره.انه التوحيد للخالق العظيم،والتوجه إليه والإعتصام بحبله المتين.إنه نفس المنهج الذي بدأ به الأنبياء من قبل وبدأ به ابراهيم وإسماعيل. المنهج الذي لا حياة ولا نهضة للعرب إلا وفقه.إنها امة الرسالات امة التوحيد لله لا تأخذ عن غيره في العقيدة .في الأخذ عن غيره بلبلة وضياع وتيه وتخلف وإنحطاط وضعف والأخذ به استقرار على الحق والخير و تقدم ورقي وثراء للحياة الطيبة الكريمة في كل ابعادها المادية والروحية الدنيوية والأخروية.

في نحو ربع قرن بعد نزول الوحي نفض العرب عنهم غبار الشرك وحرروا أراضيهم ووحدوها وحققوا نهضتهم الحضارية الفريدة في اسسها وخصائصا ومعطياتها وشموليتها.الحضارة التي وفرت للإنسان بغض النضر عن دينه وجنسه وبلده الحياة الحرة الكريمة التي أرادها الله له.

غير أن هذه الأمة التي نهضت، كبت من جديد،بفعل عوامل داخلية وخارجية، وأنتابها الضعف ،غير أنها لم تمت ،لأنها أمة للحياة والخير.لقد تعرضت وهي تحاول الإنتقال إلى المرحلة التصنيعية القائمة على اكتشاف القوانين الطبيعية وتطبيقاتها،إلى هجمات الأقوام المتخلفة حضارياً في آسيا وأوربا، ومنذ عقود النصف الثاني للقرن الهجري الخامس.فتوقفت عجلة التقدم الحضاري في ديارها.وضعفت في كل ميادين الحياة السياسية والحضارية.بل أن نتاجها العلمي ،في قرون التقدم ،ورثه غيرها وطوروه،بينما استسلمت إرادتها لقوة الغزو الخارجي المادية والى حين.شاعت الخرافة بدل الأيمان واعتمد الجهل بدل العلم ،وشاع التواكل بدلا عن التوكل.وظهرت محاولات للتغلب على ذلك الواقع المتخلف.لكنها لم تكن شمولية.لا بالأبعاد ولا بالمكان ولا بالزمن.فلم تحقق إلى هذا اليوم نهضة حضارية شاملة للعرب.

والسؤال الذي يمكن أن يطرح كيف السبيل إلى تحقيق نهضة حضارية جديدة للعرب ؟

استوعبت موضوع هذا البحث خمس نقاط جاءت بعدها خاتمة وكالآتي:

أولاً.أحوال العرب قبيل الإسلام.

ثانياً.الإسلام واعتناق العرب له.

ثالثاً.تحقق النهضة الحضارية العربية الإسلامية.

رابعاً.الدخول في مرحلة الركود الحضاري.

خامساً.الواقع المعاصر والصيرورة بإتجاه النهضة الحضارية الجديدة.

خاتمة البحث

أولاً.أحوال العرب قبيل الإسلام:أحوال العرب قبيل ظهور الإسلام،لم تكن، كما ينبغي،في جميع الميادين،موازنة بأحوال الأمم الأخرى التي كانت معاصرة لهم.غير أنها اشتملت على معطيات جعلتهم أفضل من غيرهم من الأمم التي كانت معاصرة لهم وكانت بمثابة مؤشرات على إمكانية نهوضهم وأن يكون لهم المستقبل الأفضل .

ثمة حقيقة أقرها الباحثون في تاريخ العرب قبل الإسلام أن العرب كانوا أفضل من غيرهم من الأمم التي كانت معاصرة لهم.يربطون ذلك بحقائق منها أن العرب هم أهل الرسالات السماوية وأهل الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.وأهل أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض وأهل حرمه.وأهل أولى الحضارات الإنسانية وأصحاب المنجزات الإبداعية الأولى في تاريخ البشرية.

موقع بلادهم وسط بين بلدان الأمم الأخرى.أكسبهم هذا الموقع إمكانية الإتصال مع غيرهم في الشرق والغرب.مساحة القيم الأخلاقية في حياتهم أكبر كثيراً مما كانت عند سواهم(١).

نعم لم تكن لهم دولة شاملة ولم يحققوا نهضة شاملة قبيل ظهور الإسلام.كانت لهم دول في اليمن وفي وسط الجزيرة وفي العراق والشام.منها المستقل ومنها ما كان تابعاً لغيرها من الدول.غالبية دولهم ودعت مسرح الأحداث قبيل بزوغ فجر الرسالة الخاتمة.كانت قيم القبيلة وأعرافها سائدة في مضاربهم.

" امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي بأخلاق ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقدح المعلى،كالفصاحة وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة والصراحة في القول وجودة الحفظ وقوة الذاكرة وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة " (٢).فهم الأفضل بمجمل ما كانوا عليه بين شعوب الأرض قاطبة،عند بزوغ شمس الرسالة السماوية الخاتمة.

من معطيات أحوال العرب قبيل ظهور الإسلام وجود :

١ .معتقدين بالتوحيد :مثله أعداد من الناس (الأحناف). كانوا يعتقدون بالتوحيد الذي أحياه و قاد موكبه في بلاد الرافدين الشاب العراقي إبراهيم عليه الصلاة والسلام.من العراق سار إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالتوحيد بين العرب في بلادهم في الشام ومصر والجزيرة العربية،ينفض عن قلوب أهلها ما تراكم عليها من أدران الأهواء.ويحيي بالرسالة السماوية ميت أحوالهم ويبعث فيهم من جديد أنوار الرسالة التي جعلتهم خير الأمم على مدار القرون .في تلك الرحلة المباركة رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أركان البيت.إذاناً بمرحلة جديدة في حياة العرب،يوحد الله تعالى فيها ويعبد ويطاع فيها شرعه ويحكم،وينبذ فيها ألوان الشرك والظلم.مرحلة جديدة يتوحد فبها العرب المسلمون لله تعالى وتتغير بها أحوالهم وأحوال ما شاء الله تعالى من عباده. إنه تأكيد على استمرار حمل العرب لراية التوحيد وتأكيد على تشريف الله لهم بالسير على صراطه المستقيم ومنهجه القويم،الذي أكرم الله تعالى به امة العرب،أمة الإسلام، بحمل لوائه وإيصال أنواره إلى عباده جميعا.

من القائلين بحودانية الله تعالى قبيل بزوغ أنوار الوحي الأخير وكانوا يتبعون دين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والتسليم:ورقة بن نوفل.قس بن ساعدة الإيادي.أبو قيس صرمة بن أبي أنس بن مالك بن عدي بن عامر بن عدي بن النجار.فارق الأوثان وأتخذ مسجدا،لا يدخل عليه فيه طامث ولا جُنب،وقال أعبُد ربَ إبراهيم.فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة أسلم فحسن إسلامه وهو شيخ كبير،وكان قوالا بالحق ،معظماً لله في الجاهلية،ثم حسن إسلامه،وكان يقول في الجاهلية أشعاراً حساناً يعظم الله تعالى فيها منها:

يَـقـولُ أَبو قَيسٍ وَأَصبحَ ناصِحاً ألا ما استطعتُمْ منَ وَصَـاتيَ فـأفْعلُوا
أُصِيكُمُ بـاللَّهِ والـبرِّ والتـقى وأعراضِـكُـم والـبـرَّ باللَّهِ أولُ
وإن قَـوْمُـكُمْ سادوا فلا تحْسـدُوهُمُ وإن كنتمُ أهل الـريـاسـةِ فَـأعْـدِلُـوا [٣].

٢.انتشار الشرك:مع أن سائر العرب قبيل ظهور الإسلام كانوا يعتقدون بوجود الخالق العظيم إلا أ ن منهم من أشرك به.فأتخذ الأصنام والأوثان وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفا.فابتعدوا مسافات متفاوتة عن عقيدة التوحيد التي جاء بها الأنبياء من الله تعالى ودعى إليها أبوهم إبراهيم وإسماعيل.بلغ من جهلهم أن قبائل منهم اتخذت أصناماً لها في الكعبة تقدم لها القرابين لتكون شفعاء عند الله لها. " عمرو بن لحي أول من غيَّر الحنفية دين إبراهيم،وأول من نصب الأوثان حول الكعبة " [٤].

٣.كان بين العرب من أتباع الديانات السماوية:النصرانية واليهودية:هؤلاء حرفوا أيضا عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى وعيسى عليهما الصلاة السلام من الله تعالى وحرفوا شرائعه.

٤.توفر عدة معتقدات بينهم،فيها من الأديان السماوية الموروثة،وفيها من اختراعاتهم ومن اختراعات غيرهم.

٥.إرتقاء اللغة العربية وآدابها في شبه الجزيرة وأطراف العراق والشام،بدلائل منها:فهم العرب للقرآن الكريم،مع انبهارهم به، حين نزوله.وما كان لهم من شعر وأمثال وخطب،وما كان بينهم من عارفين بالقراءة والكتابة.وما كان لهم من أسواق للشعر.

٧.محاولات لرفض الهوان والخنوع وتطلع للحرية في جبهة العراق والشام (المناذرة الغساسنة).

٨.عقد المعاهدات التجارية (الإيلاف).

٩.جرت محاولات لتحقيق العدل الإجتماعي والسمو بالنفس إلى آفاق الخير.فظهرت في مكة المكرمة أحلاف لنصرة المظلوم في البلد الحرام وتحقيق مقاصد أخرى. منها حلف الفضول [٥].

١٠.محالفات بين أكثر من قبيلة.(دولة كندة).

١١.سيادة قيم القبيلة وأعرافها.

١٢.قيام دول للعرب في شبه الجزيرة وفي أطرافها مثل: دول اليمن ودولة كندة،دولة المناذرة،دولة الغساسنة،دولة تدمر، دولة الأنباط في بترا ودولة مكة. لم تتمكن أية دويلة من دويلات العرب من تحقيق نهضة حضارية شاملة للعرب.ومنها ما كان خاضعاً لفترات لغيره من الدول المجاورة[٦].

دويلة مكة:كان قصي(الربع الثاني للقرن الخامس الميلادي)أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه،فكانت إليه الحجابة والسقاية،والرفادة،والندوة،واللواء،فحاز شرف مكة كله[٧].كانوا لايشاورون في أمر نزل بهم،ولا يعقدون لواءً لحرب قوم غيرهم إلا في داره ،يعقده لهم بعض ولده.أتخذ لنفسه دار الندوة،وجعل بابها إلى مسجد الكعبة،ففيها كانت قريش تقضي أمورها[٨].

هذه هي بإيجاز شديد أحوال العرب عند بدء نزول الوحي على النبي الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.لا وجود لدولة شاملة جامعة للعرب.ظهرت لهم دول صغيرة حققت كل منها منجزات حضارية.لم تتمكن أية واحدة منها أن تكون سببا لإحداث نهضة شاملة للعرب.منها ما كان خاضعاً لمقدرات دول أخرى مثل دولة الغساسنة،كانت تبعيتها للروم،دولة المناذرة كانت تبعيتها للفرس في فترات مختلفة من تاريخها.

ثانياً.الإسلام واعتناق العرب له:النبوة الخاتمة والشريعة الأخيرة التي ارتضاها الله تعالى للناس كافة خص الله تعالى بها النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم،وهو من أسرة عربية قرشية يتصل نسبها بنبي الله اسماعيل بن أبي الأنبياء ابراهيم الخليل على نبينا وعليهما وعلى الأنبياء جميعاً الصلاة والسلام[٩].

ولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة مدينة أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله تعالى.أهل هذه المدينة قبيل ظهور الإسلام هم ورثة التوحيد،غير أن غالبيتهم غيروا فيه وأدخلوا عليه ما ليس منه.

اعتنق العرب الإسلام فحدثت تغييرات جوهرية في حياتهم:

١.انتهاء البلبلة العقائدية والتشريعية،التي كانوا عليها والتي لحقت بهم بعد مضي أزمان طويلة بينهم وبين نبوة ابراهيم واسماعيل ومن بعدهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.تلك البلبة التي اخترعها بعض العرب وأخترعها ناس من غيرهم وسرت إليهم .

٢.تحرير بلاد العرب في آسيا وأفريقيا من السيطرة الخارجية الجاهلية والمنحرفة عن عقيدة التوحيد.

٣.قيام دولتهم الواحدة،التي امتدت أراضيها من مياه المحيط الأطلسي غربا إلى تخوم الصين والهند شرقا. ومن جبال البرتات جنوبي فرنسا شمالا إلى الصحراء الكبرى الأفريقية ومياه بحر العرب والمحيط الهندي جنوبا.

٤.تفاعل طاقات العرب في كل بلدانهم بسبب زوال السيطرة الأجنبية على بلادهم وانتهاء النفود الأجنبي المخرب لحياتهم .وبسبب قيم الإسلام الذي حققت العدل والحرية الحقيقية لهم ،حتى للذين أقاموا على دياناتهم ومعتقداتهم القديمة.

٥.وصول أنوار الرسالة التي حملها العرب المسلمون بكل أمانة إلى الأمم المعاصرة لهم وسطوع شمس حضارتهم عليها.

٦.إسهام أبناء الأمم الأخرى في بناء الحضارة العربية الإسلامية ،بسبب ما وفره حملة الرسالة لهم عملياً ،في البلاد التي وصلوا إليها ،من عدل وحرية وخير،ولما كان عليه حملة الرسالة ودولتهم من تعامل إنساني رفيع مع الغير، لم تعرف شعوب الأرض له مثيلا في تاريخها الطويل[١٠].

ثالثاً.تحقق النهضةالحضاريةالعربيةالإسلامية:وهي في خصائصها الفريدة وفي عطائها المتنوع المتفوق كانت نتيجة طبيعية للمقدمات المنطقية التي ذكرناها.عقيدة صحيحة ربانية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.قدمت الإجابات الصحيحة عن كل الأسئلة الكبيرة التي كان ولا يزال الإنسان يطرحها.مؤمنون صادقون بها فدوها بالأموال والأرواح.حملوها إلى غيرهم بصدق.عقيدة أحدثت ثورة حقيقية وشاملة في حياة العرب.ثورة حررت الإنسان وحررت أرضه وحررت طاقاته فأتجه إلى العمل المثمر النافع له ولمجتمعه في الدارين.لقد تهاوت الأصنام والأوثان وتهاوت الزعامات الظالمة الجاهلة التي عبدت الإنسان لها من دون الله وأستغلت جهده وطاقاته أبشع استغلال لصالحها.حدث ذلك بفعل الإنسان العربي المسلم الثائر على الواقع المتردي في مجتمعه وفي المجتمعات التي وصلت إليها أنوار الرسالة التي حملها وعاشها واقعيا.

نجحت العقيد الصحيحة والشريعة الربانية العادلة والقيم التي انبثقت عنها في بعث الحياة الحقة في العرب ليرتقوا إلى مصاف الإختيار الرباني لهم .فتحول الفرد منهم إلى طاقة كبيرة حققت ما يعجز عن تحقيقه غير المؤمن بالله تعالى ورسوله والنور الذي جاء به من ربه تعالى.لقد اسقط الإسلام وقيمه السامية الخوف من الحاضر والمستقبل، أسقط الخوف من الرؤساء والقادة الظلمة والمستغلين للإنسان .لم يعد الخوف عند العربي المسلم إلا أن يعصى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.ولذلك فإن الخوف من دول الإحتلال لبلاد العرب والخوف من ملوكها وتيجانها وعروشها وجيوشها ونفوذها وسطوتها وشركها أصبح كله تافهاً هزيلا عند المقاتل العربي المسلم حامل قيم رسالة الإسلام الخالدة وهو يأخذ به في شؤنه كلها .فتحررت الأرض يوم أن تحرر الإنسان وتوحدت البلاد يوم أن تحررت الأرض والإنسان.ثم كانت النهضة الحضارية الحقة للعرب والمسلمين.

ثمة ترابط وثيق وجدلي بين النهضة والتحرر .كانت بلاد العرب قبل الرسالة الخاتمة متخلفة لأسباب أهمها الأبتعاد عن العقيدة والشريعة الربانية الصحيحة .فضعف انسانها في كل شيء ولذلك فلم يكن بمقدوره وهو المتهاوي من الداخل الدفع عن نفسه وعن أهله وعن بلاده فأحتل الروم ما شاء لهمة من بلاده وأتحل الفرس ما شاء لهم وأحتل الأحباش ما شاء لهم وتسلط من تسلط وظلم من ظلم.الإحتلال مرحلة انحطاط في حياة الأمم والشعوب.لا يمكن تخطياها إلا بطرد المحتلين وتنظيف البلاد والإنسان من مخلفاتهم.وكانت ثورة العرب بالإسلام الصحيح مدعاة إلى قوة الإنسان العربي الذي نفض عن نفسه وروحه أوزار سنين الإحتلال وإفرازاته فطرد القوى التي كانت محتلة لبلاد والقاهرة لإرادته والمعطلة لطاقاته والمستغلة لخيرات بلاده والمفرقة بين أبناء بلده.وعندما تحقق للعرب كل هذا وفي وقت قصير أشاد به المؤرخون تحققت الوحدة للعرب من خلال توحد جهودهم في عمليات التحرير والفتح وكان ذلك أيضاً بسبب انحسار الدور التخريبي للقوى المحتلة لبلادهم في التفريق بين أبناء الأمة الواحدة.كان شطراً منها للفرس وشطرها الثاني للروم.لقد سقطت دولة فارس وانتهى دورها السلبي وتراجعت منهزمة أمام العرب دولة الروم عن بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا.إن التحرر بالإسلام حقق الوحدة وحقق النهضة .فلا وحدة والبلاد محتلة ولا نهضة والبلاد مجزأة.بعبارة أخرى أن التحرر يساوي الوحدة والوحدة تساوي النهضة.إن ترابطاً جدليا واضحا بين الحقائق الثلاث.

إن أمثلة معطيات النهضة التي تحققت للعرب في قرون التقدم الحضاري وفيرة شاملة سطرها مؤرخونا وعلماؤنا وأشاد بها المؤرخون المعاصرون من عرب وسواهم.تلك النهضة تظهر معطياتها متألقة وضيئة متفردة إذا عقدت الموازنة بينها وبين ما كانت عليه معطيات أحوال المجتمعات المعاصرة للعرب.وللقارئ أن يقرأ ما شاء له في المصادر والدراسات الحديثة. وهي كلها دلائل على أن النهضة الشاملة تحققت للعرب المؤمنين يوم أن اهتدوا إلى الثابت وأعتمدوه في حياتهم ،والذي لا يمكن أن تكون لهم نهضة حقيقية شاملة بغيره[١١].

رابعاً.الدخول في مرحلة الركود الحضاري:وله أسبابه ومنها:

١.تعطل العقل وجمود الفكر بفعل عوامل متعددة.منها تعرض العرب والمسلمين إلى الغزوات الخارجية،القوى السياسية الهمجية في أوروبا،والقوى المتخلفة في آسيا.التي كانت تملك القدرات العسكرية المتفوقة وتفتقر إلى التحضر ومعطياته.والتي انقضت ومنذ القرن الخامس الهجري على غرب العالم العربي الإسلامي ،وأخذت تحدث ثلمات في جداره الخارجي متجهة نحو قلبه وبكل ما أوتيت من قوة .وهي بهذا كانت تريد استعادة أراضيها التي فتحها العرب في الأندلس،وتريد استعادة سيطرتها على أراضي العرب وثرواتها التي استحوذت عليها ولقرون طويلة في شمال أفريقيا و مصر والشام وخسرتها أمام أنوار الإسلام التي حمل مشاعلها العرب،يوم أن أحدثوا انقلابا جوهريا في حياتهم بفعل قيم الرسالة الخاتمة وبفعل جذرهم التاريخي الحضاري الرسالي موضع الأختيار ،بقدر الله تعالى وعلمه وعدله، والممتد على طول تاريخ الحياة الإنسانية على سطح هذا الكوكب الأرضي .

في شرق العالم العربي الإسلامي كانت هجمات المغول تخرب كل ما كان أمامها وهي تندفع بوحشية قل نظيرها نحو الغرب،فأجتاحت ديار المسلمين والعرب،فلم تبق ولم تذر.تهاوت أمامها صروح العلم والثقافة،وتهاوت أمامها حصون وقلاع العرب، الذين لم يدرك القابضون على مقدراتهم السياسية والعسكرية حجم المخاطر التي كانت تهددهم وتهددها، وهم في خضم النزاعات الداخلية ،التي أذهبت ريحهم .نسي الأنانيون من أبنائها واجباتهم تجاه أمتهم ومصالحها العليا، وتذكروا مصالحم الخاصة، فأجتاحهم الطوفان التتري، القادم من الشرق. فأخذ الجميع ولم يسلم منه أحد.فعاد العرب إلى حال الضعة والضعف وهم يعيشون تحت نسابك خيل القوى الغازية المتخلفة .تعطل العقل فغاب وحضر بدلا عنه الخرافة والشعوذة ،غاب التوكل وحضر التواكل، انكأفأ الناس على ذواتهم الخاوية المنهزمة و بحثوا عن ملاذات تحفظ ذواتهم في ليل السيطرة الأجنبية الطويل والمرهق.بذلت جهود هنا وهناك في شرق البلاد العربية وفي غربها حاولت إيقاف التراجع ولو إلى حين .(المرابطون والموحدون وبنو مرين في المغرب)و(الأيوبيون وغيرهم في المشرق).

٢.تراجع الفهم الصحيح للعقيدة والشريعة الإسلامية في حياة المسلمين فانعكس ذلك على تفاصيل حياتهم الإجتماعية والسياسية.

٣.شيوع النزاعات الداخلية.

4.تعرض بلاد المسلمين للغزو الخارجي والسيطرة الأجنبية.

خامساً.الواقع المعاصر والصيرورة بإتجاه النهضة الحضارية الجديدة :ماضي العرب عند ظهور الرسالة له شبه بالواقع العربي اليوم ولم يخطئ ابن خلدون في مقدمته الفذة يوم أن قال: " فالماضي أشبهُ بالآتي من الماء بالماء " (١٢) .لم يكن ابن خلدون يعني بالتماثل بين الماضي والآتي ،التطابق بالأحداث وتفاصيلها بين الماضي والحاضر والآتي،وإنما كان يقصد أن ثمة تماثل قائم في القوانين الكلية المتحكمة بحركة التاريخ في الماضي والحاضر والمستقبل.نعم إنها واحدة لم تتغير.مثلها مثل قوانين الفيزياء والكيمياء والرياضيات وعلوم الحياة التي أودعها الخالق العظيم في مخلوقاته التي أبدعها.

ذكرنا أن العرب كانوا في ضياع عقائدي وفكري ترتب عليه، قبيل ظهور الإسلام،تخلف اجتماعي وضعف سياسي.كان في حياتهم ورصيدها التاريخي معطيات تبعث على الأمل في التغيير.التوحيد لله تعالى هو الأصيل عند العرب والشرك حالة طارئة في حياتهم .الحرية كانت واقعاً في حياتهم والإحتلال حالة طارئة .التخلف حالة تابعة للشرك والإحتلال وهو ناتج عنه وعنها .

كان الإرتقاء من جديد إلى إفراد الخالق العظيم بالربوبية فردياً ،عند الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أول مرة،كما كان حال الإرتقاء إليه عند العراقي ابراهيم صلى الله عليه وسلم.ثم تحول إلى ارتقاء جماعي.تغير به واقع العرب في المرتين.ويمكن أن تتغير حالهم في كل زمان، متى أرادوا

وبنفس الخطوة وبنفس المسار التصاعدي.حل محل الشرك نقيضه التوحيد.والخضوع للغزاة كان نقيضه التغلب عليهم بالجهاد المفضي إلى التحرر الشمولي للإنسان والأرض.بدل التجزأة ومعطياتها التخلف،نقيضها الوحدة والتقدم.وكان من آثارها الواقعية والمنطقية النهضة الحضارية.جاءت بعد تحرر الإنسان عقائدياً وفكرياً وتحرر أرضه سياسياً وعسكرياً وثقافياً واقتصادياً وسقوط الحواجز التي كانت تحول دون التقاء الطاقات وتفاعلها في امة العرب المؤمنة.

اليوم العرب يعيشون الضياع العقائدي والفكري.جربوا العقائد المصدرة إليهم والوافدة عليهم والمستوردة من قوى معاصرة لهم في الشرق والغرب.فلم يحققوا أي تقدم حقيقي وعلى مدار أكثر من قرن.التخلف يعيشه العرب في كل مفصل من مفاصل حياتهم.عالة على الغير .الغير منتج وهم مستهلكون.يتراجعون بشكل مروع وغيرهم يتقدم. الغير يتوحد وهم يساهمون بصورة جديدة في تقسيم بلدانهم وتفتيتها .لم يكتفوا بالخارطة الاستعمارية التي مزقت بلادهم في الحرب العالمية الأولى وإنما خضعوا لهذه التجزأة وأصبحوا أدواة طيعة بيد المنتفعين بها.حققوا لأعداء أمتهم ما لم يحلموا به.في تكريس التجزأة وتسهيل تجزأة المجزئ.بينما هم يشهدون على تحقيق الشعوب لوحدتها ويشهدون على التقدم اليومي الذي تحزه يوميا في كل ميدان من ميادين حياتها المادية.بل أنهم يفرطون بثروات شعوبهم لتزدهر حياة غيرهم في الوقت الذي يستمر الفقر الأسود في كل مفصل من مفاصل حياة شعوبهم المنكوبة بهم،والمسلوبة الإرادة بفعل أجهزتها القمعية.لم يحققوا الكرامة للإنسان العربي ولم يحققوا له وبه أي شئ له قيمة مادية كانت أم معنوية.

إن واقع العرب اليوم معروفة تفاصيله السياسية والاقتصادية والاجتماعية.وأقل ما يمكن أن يوصف به إنه واقع متخلف متهرئ فاسد مجزئ مستباح للقوى المعادية لتطلعات أبنائه وطموحاتهم المشروعة بالحياة الحرة الكريمة.

إن المتحقق في أي قطر عربي لا يمثل نهضة حضارية حقيقية.حتى البلدان التي تتمتع ببنى تحتية عصرية وبعمران عصري لا يمكن أن يدعي احد بأنها حققت نهضة حضارية.لأسباب منها أن القائم على الأرض هو من تخطيط وتنفيذ الغير وأن مشغلاته قوى وافدة لمستثمرين أجانب.إن الموجود على وجه الأرض في هذه البلدان مستورد كله ليس فيه للعربي في هذه البلدان يد.إن الشركات الأجنبية نقلت معاملها ومصانعها وفنادقها الفاخرة ...إلى بعض الأقطار العربية حيث الطاقة الزهيدة في سعرها وحيث مواد الخام الرخيصة وحيث اليد العاملة الأسيوية الرخيصة.وحيث دفئ الشمس وسطوعها على شواطئ الخليج.وحيث الأسواق الإستهلاكية لإنتاجها في مصانعها القريبة والبعيدة.وحيث يمكن أن تترك تأثيراتها الثقافية والفكرية في البنية الفكرية العربية الإسلامية.

ما هو السبيل إلى نهضة حضارية عربية إسلامية معاصرة من منظور تاريخي حضاري؟

أولا.التمسك بالثابت وإقامة حياة الأمة عليه.والثابت هو:

١.أن هذه الأمة أمة مسلمة لله تعالى تشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله.وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا.

٢.إن هذه الأمة هي امة مؤمنة بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله.ومؤمنة باليوم الآخر.

يترتب على هذا الثابت:

١.الخروج من البلبلة الفكرية والعقائدية التي تعيشها الأمة.بنفض الغبار عن العقيدة الإسلامية،البسيطة والواضحة،وملخصها مدلول الشهادتين التي ينطق كل مسلم بها:لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٢.تمسك الأمة وفي كل شأن من شؤونها.بما أحله وحرمه الشرع الحكيم.

٣.إن معطيات الحضارة العربية الإسلامية في عصور ازدهارها،تاريخ يدرس،وتعرف أسبابه وخصاؤه، وليس المطلوب محاكاته من أبناء الأمة في حاضرهم ومستقبلهم.

٤.عصور التخلف تاريخها طويل في حياة الأمة معرفة أسبابه ومظاهره. واجب قادة الفكر والسياسة في الأمة اليوم تخليص أبناء الأمة،وبكل الوسائل المشروعة، من ترسباته وواقعه الثقيل عليها.وتحصينها من الماضي المتهرئ ومن المعاصر المنحط والمجافي لقيم الخير وقيم الثابت.

٥.إن التعاطي مع المعاصر عند الغير له ميادينه،غير أن الأمة غير ملزمة به قطعا.تختار منه وتدع على ضوء الثابت عندها.إن الحضارات المعاصرة تئن من أمراض وأوجاع هائلة مع كل ما أحرزته من تقدم علمي وتقني ومع كل ما حققته من رفاه مادي .وقد نبه عليه من زمن حكماء تلك الشعوب.فمن غير المعقول أن نحذو حذوهم إطلاقا ،ونحن نستشرف حضارة جديدة لمجتمعاتنا.سيكون لمعطياتها دور في إسعاد البشرية وتخليصها من أمراضها.إن البشرية كلها تتطلع إلى تجربة حضارية جديدة،يحقق فيها الفرد والمجتمع سعادته.والعرب المسلمون هم أكثر من غيرهم مرشحون لهذا الدور.لأسباب منها أن الثابت المحرك لحضارتهم إلهي،ليس فيه للعنصرية ولا للطبقية ولا للإقليمية ولا للون مساحة.ولهم من تجربتهم الحضارية الإسلامية ،ما يعين على تحقيق الحضارة في مرحلتها المنشودة.تلك الحضارة التي كانت مؤمنة وإنسانية.كان هدفها الإنسان فلبت كل حاجاته الروحية والمادية والنفسية وحققت له سعادة الدنيا والآخرة بإذن الله وتوفيقه.

٦.إن استعياب العلوم المعاصرة وتطبيقاتها هدف تسعها الأمة إليه بكل إمكاناتها.وصولا إلى ردم الفجوة بينها وبين غيرها من الشعوب في العلوم والتقنية.وصولا إلى الإبداع والإضافة في ميادين العلوم وتطبيقاتها وكشف المزيد من قوانينها وترجمتها إلى ما ينفع الناس.

٧.إن الأمة ستكون منفتحة إيجابياً على الشعوب الأخرى،تفيد منها ولا تحرمها من الإفادة عنها .فمثلما هو الإسلام للناس كافة فإن حضارته ومعطياتها للناس كافة.

٨.التحرر من كل أشكال الأحتلال والسيطرة الأجنبية في كل بلد من بلدانها.

٩.سقوط الحدود المصطنعة بين أقطار الأمة سلمياً بلا جيوش وبلا عنف.

١٠.إن الموقع الجغرافي لبلاد العرب وثرواتهم الطبيعية المتنوعة وعدد سكانهم ومن معهم من أخوتهم بالدين واللغة وغيرهم على اختلافاتهم بالقومية والتراث والتاريخ والثقافة ومن كل الأقوام في بلاد العرب يشكلون مصدرا غنياً ليس لغناه حدود.سيكون هذا وبكل تفاصيله من مؤلهات ومستلزمات النهضة المنشودة.وسيتم استثماره على أمثل وجه.وهو كفيل بإسعاد انسان هذه البلاد وسيساهم في إيجاد حلول لمشاكل الإنسان خارج بلاد العرب.مساهمة تبغي رضا الله ولا تبغي زيادة رؤوس أموال حفنة من الناس ولعدد محدود من الشركات.

١٠.تحقق النهضة الحقيقية للأمة .وفي ظلالها يحيى إنسانها حياة حرة إيمانية كريمة.يأكل مما تنتج أمته ويلبس ويستعمل مما تنتجه مصانعها.كا دام هذا الإنتاج ينافس غيره من انتاج بني البشر على سطح هذا الكوكب.تبني المسجد والمدرسة والجامعة والمختبر والمصنع والمسرح والقنوات الفضائية وتعد السفرات وبأسعار مناسبة لإنسانها داخل بلاده والى كل بلاد الناس والى الكواكب الأخرى لمن يرغب فيها.

متطابقة في تفاصيل حياتها مع الثابت الذهبي في حياتها. وصدق الله العظيم القائل:كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الهوامش

(١) الدكتور هاشم يحيى الملاح،الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام،دار الكتب للطباعة والنشر،جامعة الموصل،الموصل،،١٤١٤هـ/١٩٩٤م،ص ١٦.

(٢) الشيخ أبو الحسن علي الحسني النَدوي،ما ذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين،دار الكتاب العربي،بيروت،ط٧، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧ م ،ص٥٢.

(٣)أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي(ت٤٦٣هـ)،الأستيعاب،(طبعة الكترونية)،٢٩٨/٤ .ترجمة٣١٦٩.ينظر:نفسه:٢٩٠/٢- ٢٩١ .ترجمة١٢٤٤.

(٤)الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي(٥٦٥-٦٣٤هـ)،الأكتفاء في مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء،تحقيق مصطفى عبد الواحد،مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتبة الهلال ببيروت،١٣٨٧هـ/١٩٦٨م،٧١/١.

(٥)عبد الملك بن هشام(ت٢١٣هـ)،السيرة النبوية،تحقيق مصطفى السقا(وآخرون)،دار الكتب الأدبية،(د.ت)، ١٣٢/١ وما بعدها؛الكلاعي،الأكتفاء، ٨٥-٩٠.

(٦) ينظر ،الملاح،الوسيط،٦٧ وما بعدها.

(٧)ابن هشام،السيرة النبوية،١١٧/١-١١٨؛الكلاعي،الأكتفاء،٨٢.

(٨)الكلاعي،الأكتفاء،٨٣/١.

(٩) الإمام أبو الفداء اسماعيل بن كثير،،السيرة النبوية،تحقيق مصطفى عبد الواحد،دار المعرفة،بيروت،١٣٩٦هـ / ١٩٧١م،١٨٣/١ وما بعدها.

(١٠) يراجع:توماس ارنولد،الدعوة إلى الإسلام؛غوستاف لوبون،حضارة العرب؛زغريد هونكة،شمس العرب تسطع على الغرب؛ناجي معروف،أصالة الحضارة العربية؛عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني،أسس الحضارة الإسلامية؛جمهرة من المسشرقين،تراث الإسلام،بإشراف سير توماس ارنولد.

(١١)يراجع:توماس ارنولد،الدعوة إلى الإسلام؛غوستاف لوبون،حضارة العرب؛أدم متز،الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري؛زيغريد هونكة،شمس العرب تسطع على الغرب؛ناجي معروف،أصالة الحضارة العربية؛عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني،أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها؛جمهرة من المسشرقين،تراث الإسلام،بإشراف سير توماس ارنولد؛مجموعة باحثين،الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس،بإشراف سلمى الخضراء الجيوسي.

(١٢) العلامة ابن خلدون(ت٨٠٨هـ) ،مقدمة العلامة ابن خلدون،(الجزء الأول من كتاب العبر)،دار احياء التراث العربي،بيروت،ط٣(د.ت)،١/ ١٠.